قصص الرشيد



الأموى البرىء

تصدرها نهضة مصر بالفجالة

قصص الرشيد

— ٤ —

الأموي البريء

بقلم

أبراهيم عزوز

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعتها

مطبعة نهضة مصر

بالفجالة القاهرة

هارون الرشيد خامس خلفاء الدولة العباسية . وقد كان عصره أزهى عصور المسلمين فى بغـداد . فبلغت الدولة الإسلامية فى أيامه قمة مجدها . حتى تزلف إليها أكبر ملوك أوربا ، وخطبوا ودَّها ورضاها .

وجدير بأبناء العرب فى كل مكان أن يقرءوا تاريخ هـذا العصر الذهبي ؛ ويقفوا على سر عظمة أجدادهم . ليستمدوا القدوة الصالحة ، والعبرة النافعة .

وإنى إذ أقدم للناشئة هذه القصص ، التى تصور هذا العصر تصويراً ، فى بعضه الصدق التاريخى ، وفى بعضه الخيال الأدبى — لأرجو أن ينفع الله بها أبناءنا ، وأن تحفز هممهم لدرس هذا التاريخ المجيد .

والله الموفق　　　　　　　　المؤلف

- ١ -

قال منارةُ رئيسُ شُرْطَةِ الرَّشيدِ :

كنتُ مع الرَّشيدِ فى مدينةِ الكوفةِ . وقد نزل الرشيدُ هذه المدينةَ وهو عائدٌ من الحَجِّ سنة ١٨٦ ه . ليستريحَ فيها أيامًا ، ويقفَ على شُئونها وأحوالِها قبلْ أنْ يرجعَ إلى بغدادَ .

وكان الرشيدُ فى هذا العامِ قد انتهزَ فرصةَ وجودِه مع النَاسِ فى الحَجِّ ، وأخذَ البيْعة لِوَلَدَيْهِ : الأمينِ والمأمونِ ، ليصيرا خليفتين من بعدِه على هذا الترتيبِ .

وكتبَ عهدَه لهما فى كتابٍ وعلَّقَهُ على الكعْبةِ ؛ ليصيرَ عهدًا محترمًا من أولادِه ومن النَّاسِ ، جميعاً .

وكان الرشيدُ قد أراد أن يُرْضِيَ النّاسَ وهو يأخذُ عليهم البيعةَ لولَدَيْهِ ، فأنفقَ الأموالَ على الحُجَّاجِ ،

ونثرَ الذهبَ فى الطُّرُقاتِ ، وتصدّقَ على الفقيرِ والغنىِّ . حتى صارَ الناسُ لا حديثَ لهم إلا كرمُ الرشيد وجُوده فى هذه الحجّة .

وكان الرشيدُ حريصًا على الخلافةِ حرصًا شديدًا ، فلا شىءَ يُزعجُه ويُخيفه إلا وجود الأعداءِ الطّامعينَ فى هذه الخِلافَة ، وهم العلويُّون والأُمَويّون .

فكان يحترسُ من هؤلاءِ الأعداءِ ، ويخافُ شرَّهم ، أكثرَ مما يخافُ شرَّ ملوكِ الرومِ ، الذين ما كانت تنقطعُ الحروب بينَه وبينَهم .

وذلك لأنّه كان إذا حاربَ الرومَ حارَبَهم المسلمون كلُّهم مَعَه . وإذا حاربَ العَلَوِيِّين أو الأُمَوِيِّين ، فإن كثيراً من المسلمينِ ينضمُّون إلى هؤلاءِ الأعداءِ ، وينصرُونَهم ويساعدُونَهم عليه .

ومن أجلِ هذا ، كان يصدِّقُ كلَّ وشايةٍ يسمعُها

فى حقِّ عدوٍّ من هؤلاءِ الأعداءِ ، ويدبِّرُ له الحيلَ والمكائدَ ، حتى يتغلَّبَ عليه .

وبينما هو فى الكوفةِ ، ونفسُه مسرورةٌ بما تمَّ له فى الحَجِّ من أخذِ البيعةِ لأولادهِ الثلاثةِ ، نقلَ إليه أحدُ الوُشاةِ الكذَّابين خبرًا مكذوبًا ، عن رجلٍ من بنى أميَّة ، اسمُه يزيدُ يسْكُن دمشقَ .

وكانت دمَشقُ فيما مضَى عاصمةَ دولةِ بنى أُمَيَّة ، التى خرجَت منها جُيوشُهم المنتصرَةُ ، وشَرَّقَت فى الأرضِ وغَرَّبت ، وفَتَحَتِ الفُتُوحَ فى كلِّ البلادِ من الصينِ شرقًا إلى شَمالِ إِفرِيقِيَّةِ وبلادِ الأندَلُسِ غربًا .

فرأت دِمشق فى أيام بنى أميةَ عِزًّا كبيرًا ، لم ترَ مِثْلَه لا من قبلُ ولا من بعدُ . وصارت تجتَمِعُ فيها أموالُ الخراجِ من كلِّ هذه البلادِ المفتوحةِ ، وتُنْفَقُ على زِينَتِها وتجمِيلِها ، وإقامَةِ القصورِ والبساتِين

فيها . حتى صارت غُوطَةُ دمشقَ مَضْرِبَ المثلِ فى البهاءِ والحسنِ والجمالِ .

ولهذهِ الأسبابِ كان سكانُ دمشقَ يُحِبُّون بَنِى أميّة ويلتفُّون حولَهم حتى، بعدَ قيام الدَولة العباسيةِ .

فلمـا سَمِع الرّشيدُ أخبارَ يزيد الأُمَوىّ ، خافَ وانزَعَج ، وصوَّرَله الخوفُ أنه لابدَّ أن يثورَ فى دمشق، وأن دمشقَ كلَّها (وهى المدينةُ الكبيرةُ) ستَنصرُه وتثُورُ معه بعد أيامٍ قلائلَ .



ولهذا دعانى إليه وقال لى :

يا منارةُ ، لقد نقلَ لى أهلُ الصِّدقِ من رجالى ، حديثًا مُخيفًا عن يزيدَ الأُموِىِّ فى دمشقَ . . .

فقد ذكروا لى أنه صاحبُ أموالٍ كثيرةٍ ، وضياعٍ عامرةٍ ، وَأنه يُنفقُ أموالَه فى شراءِ الغلمانِ من الأتراكِ ، والسُّودَانِ ، ويكوِّنُ منهم جيشاً كبيرًا ، يَغزُو به ما حولَه من البلادِ . ويستعدُّ بهذا لثورةٍ يَشُنُّها علينا ، ليسترجعَ ملكَ آبائِه وأجدادِه .

وهو إن ثارَ علينا سيجدُ من أهلِ دمشقَ أعوانًا وأنصارًا ، ويجدُ من العربِ كلِّهم جُنودًا مُخلصين يُدافعون عنه ويثورون معه .

لأن العربَ لا ينسَوْنَ أننا أبعدْنَا هم عن

الحكم . وقرَّبنا الفرسَ إلينا ، وفضّلناهم عليهم .

فقُلتُ له :

— إنّكم يا أميرَ المؤمنين فضّلتُم الفرسَ على العربِ ولكم العذْرُ فيما فعلْتُم ، لأنّكم وجدْتُم العربَ مُخْلِصين لبنى أميَّةَ ، مُفَضِّلين لأيّامِهم وحُكمِهم على أيّامِكم وحكمِكُم .

فظهرَ الارتياحُ على وجهِه وقالَ :

— لقد فَهِمْتَ السّببَ يا منارةُ ، وأنصفْتَ العباسيِّينَ فى حكمك عليهم . والآن ، يجبُ أن تذهبَ من ساعتِك وتأخذَ معك مائةً من الجنودِ الأشداءِ . وتَركَبَ إلى دمشقَ .

فإذا وصلتَ إلى دارِ يزيدَ ، فقدّم إليه رسالتى هذه ، واحملْه مُقَيَّدًا على جملٍ فِى مَحْمَلٍ ، واركبْ أنت فى الجانبِ الآخَرِ من المحمَلِ .



يامنارة لقد نقل إليّ . . .

وإذا رفضَ أن يسيرَ معك ، فاحرسْه أنت والجنودُ ، وأرسِل إلى حاكِمِ المدينة وأَبلغه الخبرَ واطلُبْ منه العونَ والمساعدةَ .

ثم لاحظ كلَّ شيءٍ يتصلُ به ، فى بيتِه وغِلمانِه وسائرِ شُئونه ، واحفَظْ كلَّ كلمةٍ يقولُها من ساعةِ لقائكِ معه إلى حينِ وصولِكما إلىّ .

وقد حدَّدْتُ لك ستّةَ أيامٍ للذهابِ وستَّةً أُخرى للعودَةِ ويومًا للإقامَةِ . وأنا منتظِرُك فى نهايةِ اليومِ الثّالثَ عشرَ .



مَنْ أثِقُ به . وأطمئِنُّ إلى شجاعَتِه من الجنودِ ، فأخذت
واخترْتُ أقوى الخيلِ وأسرعَ الجمالِ ، وحمَلتُ
السلاحَ والقَيْدَ ، واخترقْتُ الصّحراءَ . ولازمْتُ السّفَرَ
ليلاً ونهارًا ، لا أنزلُ بالجنودِ إلا قليلاً للصَّلاةِ والراحةِ
القصيرَةِ . ولقد كُنَّا نأكلُ ونشرَبُ ونحن على ظهورِ
الدّوابِّ ، وننامُ ونحن سائرُون .

وبعدَ مسيرِ ستةِ أيام شاقَّةٍ كامِلةٍ ، وقفتُ أمامَ
أسوارِ دمشقَ . وكان الوقتُ ليلًا . والمدينـةُ مقفلةُ
الأبوابِ ، متينةُ الأسوارِ .

فكرِهْتُ أن أطلبَ من الحرسِ دُخولَها ليلًا . وفضَّلْتُ
أن أنامَ خارجَ أسوارِها .

وتخيّرْتُ مكانًا بالقربِ من بابِها ، ونزلْتُ فيه برجَالِي
وأحمالِي ودوابِّي .

وفى الصّباحِ فُتِحَتْ أبوابُها ، فقمتُ من فَوْرِى ودخلتُ المدينةَ برِجالِى وموْكِبِى ، وتوجّهْتُ توًّا إلى دارِ يزيدَ الأُمَوِىِّ .

فوجدتُ أمامَ بيتِه صفًّا عظيماً مِن الخَدَمِ والغِلمانِ والحاشِيَةِ ، وكلُّهم مستعدون لتلبيةِ الطّلبِ ، وسمعْتُ فى البيتِ حركةً وضوضاء ، كأنّ أمرًا عظيماً قد حدثَ فيه .

فلم أطْلُب الأذن ولم أنتظِر حتّى يأذَنَ لى أحدٌ . ودخلْتُ البيْتَ مُتَهَجِّمًا عليه . غيرَ مُهْتَمٍّ بمَنْ فيـه ... فدهِشَ الغلمانُ وكادوا أن يقبِضُوا علىّ ويمنعُونى من الدّخولِ .

ثم سألُوا عنِّى فقيلَ لهم :

— هذا منارةُ رئيسُ شُرْطَةِ الرشيدِ ، ورسولُهُ إلى سيّدِكُم يزيدَ .

وعندئذٍ خَلَّوْا سبيلى ، وأفسَحوا لى الطّريقَ . فلما

صِرْتُ فى صَحْنِ الدَّارِ ، نزلْتُ من فوقِ جَوادِى ، ودخلتُ مجلسًا رأيتُ فيه عددًا من الجالِسين ، ذَوِى الهيئةِ الحسنةِ ، والحشْمَةِ والوَقارِ ، فقاموا ورحَّبُوا بِى وأحسنُوا استقبَالى .

فحسِبْتُ يزيدَ واحدًا منهم ، وسألتُهم :

— أيُّكُم يزيدَ ؟

فقالوا :

— هو فى الحمّامِ يستعدُّ للصّلاةِ ، ونحن أولادُه .

فعرّفْتُهم أنِّى رسولُ أميرِ المؤمنَ إليه . فأسْرَعَ بعضُهم يُخبرُه خبرِى ، ويستعجِلُه للحضورِ .



ومكثت أنا فى انتظـارِ حضورِه ، ألاحظُ الدارَ وأتفقَّدُ شُئُونَها ، وأُحصِى مَنْ فيها مِن غلمانٍ وخدمٍ ، وما لَدَيْهِمْ من قُوَّةٍ وسلاحٍ وعُدَّةٍ . حتى كأنِّى جاسوسُ حربٍ فى ميدانِ القتالِ .

وطالتْ غيبةُ يزيدَ ، وزادَ عددُ غِلمانِه فى الدارِ ، والتَفوا حوْلى من كلِّ جهةٍ . وكانوا من قبلُ قد أخذُوا رِجالى وما معَهم من سلاحٍ وعَتَادٍ ، وساروا بِهم إلى جانبٍ من الدَّارِ .

ولم يستطِعْ رجالِى أن يُمَانِعُوا أقلَّ مُمانَعَةٍ لقلَّةِ عددهم ، وكثْرَةِ خدمِ يزيدَ وغلمانِه .

فلمّا رأيتُ ذلك كلَّه قلْتُ فى نفسى :

لقد تمَّتِ المؤامرةُ ، وفرّ يزيدُ وتمَكَّنَ من الهروبِ .

ولن أستطيعَ مقاومةَ كلِّ هؤلاءِ وحْدِى ، ولن أجدَ مَنْ يتَّصِلُ بحاكِمِ المدينةِ ويُخْبِرُه بما حدَثَ لى . وأسِفْتُ أشدَّ الأسَفِ ، لِأَنِّى مَكَّنْتُ غلمانَ يزيدَ من التَّفرِيق بيْنى وبينَ غلمانِى . وشَعَرْتُ بالخطأِ الّذى وقعتُ فيه ، لأَنِّى لم أذهبْ إلى حاكِمِ المدينةِ أوّلًا ، قبلَ أن أدخلَ دارَ يزيدَ ، لأستعينَ بِجيوشِه وقوّتِه .

وبيْنَما أنا غارقٌ فى هذه الأفكارِ ، سمعتُ جلَبَةً وحركةً فى صحْنِ الدّارِ ، فوضعْتُ يدى على مَقْبِض سيْفِى لِأُدافعَ عن نفْسِى إذا هجَمَ علىَّ أحدٌ . ثُمَّ نظرْتُ فإذا رجلٌ خارجٌ من الحمّامِ وعليه ملابسُ الحمَّامِ ، وحولَه عددٌ من الخدمِ والغلمانِ والأولادِ والأحفادِ .

فعرفْتُ أنّه يزيدُ ، وخَجِلْتُ من الأفكارِ الّتى دارتْ بنفسِى منذُ لحظةٍ .

ولما وصلَ إلىَّ حيَّانِى وسلّمَ علىَّ سلامًا خفيفًا ،

كأنَّه كان معى أمسِ ، ثم جلسَ وسألنِى عن أميرِ المؤمنينَ ، وعن أولادِه وشئونِ دولتِه ، كما يسألُ صديقٌ عن شئونِ صديقٍ ، فأجبتُه عن جميعِ أسئلَتِه بما يَلزمُ .

وما كادَ يَفْرُغُ من هذه الأسئلةِ ، حتى تقدَّمَ الخدمُ بأطباقِ الفاكهةِ ، ووضَعُوها فى أماكنِها المُعَدَّةِ للطَّعَامِ ، فنادانى قائلاً :

— تقدَّم يا منارةُ وكُلْ معنا .

فاعتذَرْتُ وامتنعْتُ عن الأكلِ . فلم يُعاودِ الدَّعْوةَ ، وأكلَ هو ومَنْ معَه .

ولما رُفِعتْ أطباقُ الفاكهةِ ، وُضِعَتْ مائدةُ الطَّعامِ ، وعليها من الألوانِ والأصنافِ ما لذَّ وطابَ من لحومٍ وطيورٍ وفطائرَ وحلوَى ومُشتَهيَاتٍ ، مما لا مثيلَ له إلا على موائدِ الملوكِ والخلفاءِ ، فنظرَ إلَىَّ وقال :

— يا منارةُ ساعدْنا على الأكلِ .

فامتنعتُ . فلم يَزِدْ كلمةً . وأقبلَ هو وتسعةٌ من أولادِه يأكلون . وكُلَّمَا رُفِعَ طبقٌ من المائدة ، وُضِعَ طَبَقٌ أشهى منه وألذ .

ونظرتُ إليه فوجدْته يأكلُ بشَهِيَّةٍ واطمئنانٍ ، لم أعرِفْهما في أحدٍ غيرِه .

فعاوَدَتْنِي الشكوكُ في أمرِه ، وأخذتُ أتفكَّرُ وأقولُ في نفسي :

— إِنَّه رجلٌ جبَّارٌ ، يعرفُ أني رسولُ الرشيدِ إليه ، وليس بينَه وبينَ الرشيدِ مودَّةٌ ولا سلامٌ ، ويعلمُ أني جئتُ برجالٍ وجنودٍ وسلاحٍ . ثم يقابلُ كلَّ هذا بعدمِ الاهتمامِ . . يأكلُ ويشربُ ويتفكَّهُ كأنه في فرحٍ وأمْنٍ . ويُناديني باسمِي من غيرِ لَقَبٍ واحترامٍ . ولا يُعِيدُ دَعْوَتي إلى الطعامِ . . .

لا شكَّ أنه عزمَ عزْمةً غادِرَةً ، ولا شكَّ أنه يعرفُ

طريقَ الخلاصِ مِنّ ومِنَ الرَّشيدِ .

وأتمّ طعامَه وغسلَ يديهِ ، ثمّ دعا بالبخورِ فتبخَّرَ . ووقفَ على السجّادَةِ يُصلِّي الظهرَ . فصلَّى وأطالَ الصلاةَ ، وأتْقنَ الركوعَ والسجودَ ، وأكثرَ من الدّعاءِ إلى اللهِ والتَّضرُّعِ إليه .



ولما فرغَ من صلاتِه ، أقبلَ عليّ وجلسَ معى ، وسألنى قائلًا :

— لماذا جئتَ يا منارةُ ؟ هل لك حاجةٌ عِندنا ؟ ؟

فأخرجْتُ رسالةَ أميرِ المؤمنينَ ، وقدّمتُها إليه ، وأنا ألاحِظُه وهو يفْتَحُها ، ويُزِيلُ أخْتامَها .

فأخذَها باحترامٍ ، وفتَحها باطمئنانٍ كأنها رسالةُ أخٍ إلى أخيه . وقرأها بعنايةٍ وطواها ووضعَها فى جيبِه .

ثم دعا أولادَه وخدمَه ، فأقبلَ مِنهم عددٌ كثيرٌ جدًّا ، ضاقتْ بهم الدارُ .

فلمّا رأيتُهم قد تجمّعوا حولَنا ، قلتُ :

— ضاعتْ حياتُك يا منارةُ ، وحياةُ رجالِك، ولن ترى أولادَك بعدَ اليومِ .

ولـكِنِّى رجَعْتُ إِلى نفسى ، واطمأنَّ قلبى حينما سمعتُه يقولُ لهم :

— هذا منارَةُ رسولُ أميرِ المؤمنينَ ، وهـذه رسالةُ أميرِ المؤمنينَ فى طلبِى . وأحْلفُ عليـكم ، بكلِّ يمينٍ من أَيْمـانِ المسلمينَ أن تتفرّقوا فى الحالِ ، وأن تلزمُوا بيوتكم حتى تعلموا خبرى مع أميرِ المؤمنينَ .

فذهبوا من حولِنا ، وتفرّقوا فُرَادى إِلى منازِلِهم الخاصَّةِ كما أمرَهم .

ثم التفَتَ إلىَّ وقال :

— أينَ قيودُك يا مَنَارَةُ ؟ !

فقدَّمْت إليه القيودَ ، فأخذَها ووضعَها فى يديْه ورجْليه .

وقمتُ مِنْ ساعتى فحملْتُه مع الجنودِ ، ووضعْتُه فى شِقٍّ من المَحْمَلِ ، وركِبْتُ فى الشِّقِ الآخِرِ .

وخرجْنا من دمشق إِلى الكوفةِ . ولم أقابلْ حاكمَ المدينةِ ولا غيرَه ؛ لأنِّى لم أجدْ حاجةً إِلى لقائهِ .



وهذه رسالة أمير المؤمنين . . .

وسرنا حتى وصلنا إلى غُوطَةِ دمشقَ ، وهى ضَاحِيَةٌ جميلةٌ لهذه المدينةِ الكبيرةِ ، كثيرةُ البساتينِ والحدائقِ والمتنزهاتِ ، ولهذا تُعدُّ من أجملِ بِقاعِ الدّنيا .

فلما قطعْنَا جزءًا من طريقِها ، أشارَ يزيدُ برأسِه إلى بستانٍ غايةٍ فى الجمالِ وقال :

— هذا بستانى ، وقد غرستُه منذ سِنين ، وهو الآن يجمعُ نادرَ الأشجارِ والفواكهِ والثِّمارِ . وأخذَ يَعُدُّ ما اشتملَ عليه من أشجارِ الفواكهِ ، وأشجارِ الزِّينَةِ ، ومساحةَ كلٍّ منها ، ومقدارَ غلَّتِهِ فى العامِ .

وكنت أسمعُ كلامَه ، وأعجَبُ منه فى نفسِى .

وفعل هذا الفعلَ حينما رأْينا بستانًا ثانيًا ، وثالثاً ، ورابعاً . ولمّا خرجْنا من مناطقِ البساتين ودخلْنا

المزارعَ والضِّياعَ ، أشارَ إلى عددٍ من مزارعِه ، وتحدَّث عنها كما تحدّثَ عن بساتينِه من قبلُ . وكأنه فى نزهةٍ جميلةٍ ، فى يومٍ من أيّامِ الربيعِ .

فساءَ ظنِّى به ، وحسِبتُ أنّه مريضُ العقلِ ، ولم أستطِعْ صبرًا وسُكوتًا عليه فقلْتُ :

— إنَّك واللهِ لرجلٌ عجيبٌ يا يزيدُ . . . وما رأيتُ فى حياتى رَجلًا أعجبَ منك ولا أغربَ ! !

فأجابنى بِرَزَانَةٍ وحِلْمٍ قائلًا :

— وماذا رأيتَ فِىّ من العجبِ والغرابةِ يا منارةُ ؟ !

فقلتُ :

— أنت رجلٌ تعلمُ أَنّك مطلوبٌ لأميرِ المؤْمنينَ ، والقيودُ فى رجلَيْكَ ويدَيْكَ ، ولا أحدَ معك يدفعُ عنك . ومع كلِّ هذا تتحدّثُ عن بساتِينك ومزارِعك ، بنفس مطمئّنةٍ ، كأن حياتَك لا تَشْغَلُك ولا تهمُّك .

وكأنك فى نزهةٍ سعيدةٍ ، لا فى طريقِك إلى العقابِ والهلاكِ .

فتنفّسَ نفسًا طويلًا ، وقال :

— لقد أخطأَ ظنِّى فيك يا منارةُ . . . كنت أعلمُ أن الملوكَ يُحْسِنون اختيارَ رجالِهم ، فلا يَختارون إلا مَنْ كَمُلَ عقلُه ، وتمَّ ذكاؤُه ، وزاد إيمانُه وثقتُه باللهِ ، وقد نظرْتُ إليك بهذه العينِ ، لأنى أعرِفُ أنّ الرشيدَ موفقٌ فى اختيارِ رجالِه الذين يقرّبُهم إليه ، ويَأْتَمِنُهُم على أسرارِه . ولكنّى رأيتك الآنَ غيرَ ما حَسَبْتُ وظنَنْتُ ، فأدركتُ أنى أخطأتُ حينما تحدثْتُ معك بحديثى السابقِ .

ولماذا أنزعجُ وأخافُ من القُدُومِ على أميرِ المؤمنين ، وأنا مُقَيَّدٌ مُغَلَّل ؟ ! واللهُ يعلمُ أنى لم أُذْنِبْ ذنبًا مع أمير المؤمنينَ ، ولم أَرتكبْ جريمةَ أخافُ منها

العقوبةَ وقد حسدَنى الحاسدون ، واتّهمونِى كذبًا وزُورًا عند أَمير المؤمنين . وأَميرُ المؤمنينَ أعدلُ النّاسِ ، وأَكثرُهم إيمانًا . ولن يستحلَّ قَتْلى بغيرِ سببٍ . ومَتَى ظَهَرَتْ له براءتى ، رَضِىَ عَنِّى وأعادَنى إلى أهلى مُكرَّمًا مُعزَّزًا ، أو أَقَامنى عندَه مُحْتَرَمًا مُعَظّمًا .

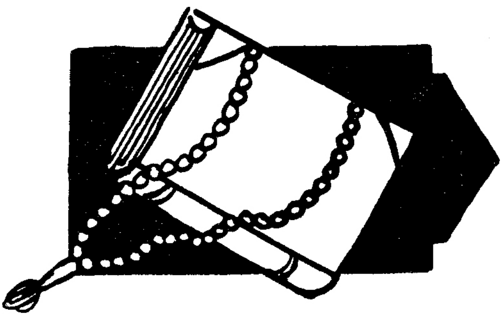
أَما إذا كان قد سبقَ فى علمِ اللهِ أَن هلاكى سيكونُ على يدِ أَميرِ المؤمنين ، فلن أَنجوَ من ذلك . ولو اجتمعَ ملائكةُ السماءِ والأنبياءُ والرسلُ وجميعُ أَهلِ الأرضِ ؛ لِيَرُدُّوا عنى ما قدّره اللهُ من الهلاكِ ما قَدَرُوا .

فلماذا أُفكِّرُ فى أَمرٍ قد فرغَ اللهُ من الحكمِ فيه ؟ ! وقد كنتُ أَحسِبْ أَنك تعرفُ هذا وتعلمُه يا منارةُ . ولهذا تحدثْتُ معك بنفسٍ طيِّبةٍ . أَما الآنَ فقد ظهرَ لى أَنك من عوامِّ الناسِ . فلا حديثَ

لى معك ، ولا كلامَ بيننا ، حتى يفرِّق بيننا أَميرُ المؤمنين .

* * *

قال لى ذلك وسكتَ . فلم أَسمعْه يتكلّمُ بشىءٍ غيرِ قراءةِ القرآنِ ، أَو طلبِ ماءٍ أَو حاجةٍ لازمةٍ . حتى انتهينا إلى الكوفةِ .



وكان الرشيدُ لشدّةِ اهتمامِه بأمرِ يزيدَ ، قد أرسل فى صباحِ اليومِ الثالثَ عشَرَ ، عددًا من جنودِه على خيولٍ سريعةٍ ؛ ليستقبلُونا على مسافةٍ من الكوفةِ .

فلمّا رأتْنا هذه الطلائِعُ ، أسرعوا بخيولِهم ليُخبروا أميرَ المؤمنينَ بخبرِنا ، ويَصِفُوا له ماشاهدوا من أحوالِنا .

وما كدْتُ أَدْخُلُ الكوفة ، حتى توجَّهْتُ فورًا إلى قصرِ أميرِ المؤمنينَ ، وتركتُ يزيدَ فى حراسةِ الجندِ ، وهو فى قيودِه وأغلالِه .

فلما رآنى الرشيدُ بادرَ بسؤالى :

— أينَ يزيدُ يا منارةُ ؟ وهل جِئتَ به كما أمرتُك ؟ وماذا كان من حالِه معك ؟!

فقلتُ له :

— هو بالبابِ يا أميرَ المؤمنينَ فى القيودِ والأغلالِ .

فهدَأَتْ نفسُه قليلاً ، وأَصْغَى لِقِصَّتِى من ساعةِ خُروجى من الكوفةِ إلى حينِ عوْدتى إليها ، ووُقُوفِى بين يديهِ .

فلما سَمِعَ أخبارَ يزيدَ وغلمانِه ، وكثرةِ أموالِه ، ظهر الغيظُ والغضبُ فى وجهِه ، وصار كلّما سَمِع جديدًا من أخبارِه يزدادُ غيظُه وغضبُه ، وتلمعُ عيناهُ بالشّرِّ .

وهكذا حتى انتهيتُ إلى الحديث الذى دار بينى وبين يزيدَ فى شأنِ بساتينِه ومزارعِه ، وقُدومِه على أميرِ المؤمنين ، وردِّ يزيدَ علىّ كما يَرُدُّ الرَّجُل البرىءُ القوىُّ الإيمانِ باللهِ ، المطمئنُّ إلى عدْلِ الخليفةِ . فإذا بأميرِ المؤمنين يَهْدَأُ ويزولُ غضبُه شيئاً فشيئاً كلَّما سَمِعَ جزءًا من القصَّةِ . ثم أخذ الرِّضا يظهرُ فى وجهِهِ ، وتَبْرُقُ

عيناه بالسُّرورِ والاطمئنانِ . حتى سَمِعَ نهايةَ القصَّةِ .

فقال :

— صدَق واللهِ يزيدُ يا منـارَةُ ، ما هو إلا رجلٌ محسودٌ مكذوبٌ عليه . وإن الحاسدين والوشاةَ لايتَّقُون اللهَ فى الناسِ . وقد أزعجْنا الرَّجُلَ ، وأَزْعجْنا أهـلَه وخدمَه ، واعتدْينا على قدرِه ومقامِه .

ويَالَيْتَنَا نُرْضِيه ، ونقدِّمُ له مِنَ المعروفِ وحُسْنِ الجزاء ما يُنسيهِ إساءتَنَا إليه ! !

ثم طلبَه ، وأمر أن يدخلَ عليه مُكرَّمًا مُحترمًا . فأسرعْتُ بفكِّ قيودِه ، وسِرْت معه إلى حيثُ يجلس الرَّشيدُ .

فلما صار يزيدُ بين يَدَىِ الرشيد ، سلَّمَ عليه وحيَّاه ووقفَ صامِتًا . فهشَّ الرشيدُ فى وجهِه ، وابتسمَ له ابتسامةَ الرِّضا ، وظهرَ الحياءُ فى وجهِ الرَّشيدِ . وكان رَحِمَه اللهُ

أكثرَ الناسِ حياءً . ثم أذِنَ ليزيدَ بالجلوسِ وقال له :

— أزعجْناك يا يزيدُ !! وكنَّا قد سَمِعنا عنك فضلاً وكَرَمًا ، وعرفْنا من أحوالِك وأمورِك ، ما جعلَنا نُحِبُّ أن نراكَ ونُكْرِمَك ، ونَقْضِيَ حاجاتِك .

فوقف يزيدُ وأظهَر الخضوعَ والشُّكرَ وقال :

— أيَّدَ اللهُ أميرَ المؤمنين ، وحفظَ ملكَهَ وولدَه ، وقهرَ أعداءَه فى كلِّ مكانٍ !! إنى واللهِ يا أميرَ المؤمنين لرَاضٍ عن هذه السَّفْرَةِ التى شرَّفْتَنِى بالوقوفِ بين يديْك ، وكسبِ رِضَاكَ وعطفِكَ !!

فزاد سرورُ الرشيدِ بمَا سَمِعَ من أدَبِ يزيدَ وبلاغتِه . وكان الرَّشيدُ رجلاً تعجُبه فصاحةُ اللسانِ ، وبلاغةُ الكلامِ ، فقال :

— نريدُ أن نُحْسِنَ إليك يا يزيدُ ، ونقضِيَ حاجاتِك . فهلْ لك حاجةٌ ؟!

فأجاب يزيدُ :

— نعم لِي حاجةٌ يا أميرَ المؤمنين ... ترُدُّنى إلى أهلى وبلدى .

فقال الرشيدُ :

— سنفعلُ ، ولكن اطلبْ ما تحتاجُ إليه مما يُصلِحُ شئونَك ، ويرفعُ قدرَك بين سكَّان دمشقَ .

فأجاب يزيدُ :

— رفعَ اللهُ قدرَك يا أميرَ المؤمنين فى الآخرةِ ، وجعلَك مع الرُّسلِ والأنبياءِ !! إن عُمَّالَك فى دمشقَ قد التزمُوا العدلَ ، وأكثرُوا الخيرَ على الناسِ . فلم يتركوا لى حاجةً .

فقال الرشيد :

— يا منارةُ ارجِـعْ به إلى أهـــلِهِ فى هذه الساعة ، وهو فى أكملِ أُبَّهَةٍ وزينةٍ .

* * *

القصة التالية :

فتح هرقلة

قصص الرشيد

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة نهضة مصر ومطبعتها
الفجالة – القاهرة

مطبعة نهضة مصر
الفجالة – القاهرة